حياتنا العامة

ينقصها النظام

للأستاذ على حسنى ابراهيم

النظام روح كل عمل وقوامه . وهو كمظهر خارجى أشبه الاشياء بالقالب المحكم الصنع يصب فيه العمل فيبدأ متناسق الاجزاء ، ترتاح له العين وتطمئن النفس .

ولقد كان النظام ، وسيظل دائما ، مظهر حضارة الأمة ورقيها ، والدليل الذى لا يخطئ على مبلغ نصيبها منهما جميعا . وإنا لنشاهد الآن أن الأمم التى احتلت الصدر بين غيرها من الأمم هى التى أشربت روحها حب النظام فأصبح لها طبيعة وسجية لا تكلف فيها ولا تصنع ، وأن من بين الأمم الصغيرة كالأمم السكندنافية ما تغبطها أمم أخرى أكبر عددا واوفر ثروة على ما كانت تنعم به من حياة هانئة رضية قبل أن تصطلى بنار الحرب ، لم تكن لتكتمل لها وسائلها لولا تعلقها بالنظام وأخذها بأسبابه .

فما مبلغ حظنا نحن ابناء الأمة المصرية من النظام وما مدى حرصنا عليه ، واذا قسنا أنفسنا الى الأمم التى نسعى الى محاكاتها ونطمع فى مساواتها فهل نخرج بنتيجة تعلى من اقدارنا وتطمئن اليها نفوسنا .

لا أعتقد أن هناك من يتردد فى الإجابة على هذا السؤال ، ولا أن هناك من لا يقطع بأننا لازلنا وراء هذه الامم بأشواط عدة ، ودون ما نرجوه لأنفسنا بمراحل طويلة ، وانه آن لنا أن نحزم أمرنا للقضاء على هذه الفوضى التى تذهب بكثير من ثمار أعمالنا ، وتضعف كثيرا من جهودنا ، وتسلب أعمالنا احكام التناسق والانسجام ، وتعرضنا للسخرية والازدراء . ولن يتسع المجال هنا لقول كل ما يمكن قوله فى مزايا النظام وكيف يكون كل منا منظما فى حياته الخاصة والعامة ، ولكن سأحاول أن أعرض عرضا سريعا بعض مظاهر الفوضى فى حياتنا العامة وهى التى تتصل بغيرنا من أبناء هذه الأمة أو من نزلائها ، حيث تبدو الفوضى سافرة الوجه ، كريهة المظهر ، تدعو الى كثير من النقد ، وتثير كثيرا من السخرية ، ذلك أنه اذا جاز للمرء أن يتهاون فيما يقتصر نفعه أو ضرره عليه وحده ، فليس له أن يتهاون فيما يؤدى تهاونه فيه الى الإضرار بمصالح غيره أو الانتقاص من حقوقه .

فى الشارع :

الشارع معرض عجيب لمظاهر الفوضى فى مصر . ولطالما أوحى منظره إلى الأجانب الوافدين إلى هذه البلاد أسوأ الأفكار عن الأمة المصرية وعن مبلغ تعلقها بالنظام . وأذكر

أن صديقا لى سأل مرة سيدة أمريكية كانت تزور مصر عن رأيها فى الأمة المصرية فكان ردها "إنها أمة لم تتعلم بعد كيف تسير فى الطريق" وهو رد على اقتضابه فيه كثير من القسوة وإن كان فيه كذلك كثير من الحقيقة . والواقع أنك لو ألقيت نظرة ناقدة على أحد شوارع القاهرة كبرى المدن المصرية وأكثرها أخذا بمظاهر الحضارة لرأيت عجبا :

فهناك يزدحم كل من الافريزين اللذين على جانبى الطريق بجموع المارة من المترجلين بين رائح وغاد يصطدم هذا بذاك ، ويضطر أحدهم للوقوف حتى يمر الآخر . ولو أنهم اتبعوا النظام فسار كل فريق على الأفريز الذى إلى يمينه لما كان هناك اصطدام ولا توقف ولاستراح الجميع وأراحوا .

وتشارك المارة السيارات والعربات والدواب فى الطريق المعد لها وسط الشارع . وتعبره فى غير المواضع المخصصة للعبور وتحدث بسبب ذلك الحوادث وتزهق الأرواح أحيانا .

ويقف بعض المارة جماعات يتحدثون تارة على الأفاريز وأخرى فى نفس الطريق فيعيقون بذلك حركة المرور .

وتسير جماعة منهم فى صف مستقيم وسير بطىء فتقيم بذلك حائطا بطىء الحركة يسد الطريق على غيرها من المارة فلا يستطيعون اجتيازه إلا تسللا أو بالالتفاف حوله .

ويلقى المارة والقاطنون فى مساكن مطلة على الطرق بالأوراق وفضلات الأكل وما شاكلها إلى الطريق مع كل ما تجشمه الحكومة من مشاق فى نظافة الطرق وإعداد أماكن خاصة تلقى فيها أمثال هذه الأشياء ، ومع كل ما تسنه من قوانين وتوقعه من عقوبات .

وتبدو المبانى على جانبى الطريق متباينة الشكل ، متنافرة الطراز . فمن دور شاهقة ذات عشر طبقات ، إلى بيوت قليلة المساحة ، ضئيلة الحجم . ومن طراز رومانى ، إلى آخر عربى ، إلى ثالث يونانى ، إلى رابع مصرى إن صح أن هناك طرازا مصريا .

ويحفل الطريق بالمتسولين فى مظهرهم المزرى ، وأطمارهم البالية ، بين متسكع فى مشيته ومتوكئ على عصا ، وزاحف على الأرض . وقد تفننوا فى اظهار عاهاتهم الحقيقى منها والمصطنع وعرضها على المارة بشكل تقذى له العيون وتغثى النفوس .

ويزدحم الطريق كذلك بالباعة الجوالين يزاحمون المارة ويضايقونهم بما يعرضون عليهم من سلع تافهة . أو يزحمون بعرباتهم جوانب الطريق وهم لا يفترون لحظة عن المناداة على سلعهم بأصوات مرتفعة تزعج السكان وتقض مضاجعهم .

ولعل أعجب ما فى الطريق ذلك المعرض المتنقل للأزياء . فلن تجد شارعا فى أية مدينة من مدن العالم يحفل بما يحفل به أحد شوارع القاهرة التى تزدحم بالمارة . فهنا ترى فريقا يلبس الملابس الافرنجية مع فارق واحد وهو الطربوش بدل القبعة ، وفريقا آخر يلبس "القفطان والجبة" وثالثا يلبس الجلباب والمعطف أو الجلباب وحده ، ورابعا يلبس العباءة . أما غطاء الرأس فيختلف من طربوش ، إلى عمامة ، إلى " طاقية " ، إلى الاستغناء عن هذه جميعا نزولا على حكم " المودة " . وأما لباس القدم فيختلف كذلك من الحذاء المعروف ، إلى " البلغة " ، إلى " المركوب " ، إلى الاستغناء أيضا عن هذه جميعا لا نزولا على حكم " المودة " بل على حكم الفقر أو الجهل ، أو على حكمهما معا .

وفى وسط هذه الفوضى ترى رجل الشرطة منهمكا فى مطاردة الباعة وجامعى أعقاب السجاير ، أو فى فض المشاجرات واقتياد المخالفين إلى دار الشرطة وقد التف حوله فريق من الجمهور يدافعون عن مرتكبى المخالفة ، ويهونون من شأنها ، ويلحون عليه فى غض النظر عنها .

هذه صور سريعة لشوارعنا المصرية وما فيها من عجب عاجب . وهى صور تبرز حاجتنا إلى النظام فى أيسر شؤوننا اليومية ، وتبين إلى أى مدى تضعف الفوضى من جهودنا وتنال من كرامتنا .

ولما كان الضد يظهر حسنه الضد كما يقولون فإنى سأعرض هنا صورة رائعة لآداب المسايرة فى العصر الإسلامى ، يوم أن كانت المدنية الغربية الحالية لا تزال تتعثر فى خطواتها الأولى . فقد ذكروا أن الوليد بن اليزيد الخليفة الأموى لأمه بعض خلصائه لأنه اختص أحد الناس بمحبته وآثره بهواه فكان رده " كيف تلومونى فى هوى رجل سايرته طويلا فما حك ركابه ركابى ، ولا تقدمنى فنظرت قفاه ، ولا تأخر عنى فلويت له عنق ، ولا حجب الشمس عنى فى شتاء ولا النسيم فى صيف قط ، ولا سألته فى مسألة إلا ظننت أنه لا يحسن سواها " ؟ .

فى السيارات العامة وعربات الترام :

لا تكاد السيارة تصل الى موقفها حتى يندفع اليها راغبو الركوب قبل أن يتمكن من فيها من النزول . وينتهى الأمر بعد ازدحام الأجسام وتصادمها بركوب الأقوياء من الشبان والرجال . أما الشيوخ والضعفاء ، وأما السيدات والأطفال ، فعليهم أن ينتظروا طويلا حتى تتاح لهم فرصة الركوب فى سيارة خالية .

وبالرغم من أن هذه السيارات لا تقبل من الركاب إلا عددا محدودا فلا يندر أن نجد راكبا زائدا على ذلك العدد يصمم على عدم مبارحة السيارة متعللا بأعذار واهية ، غير مبال

بما يسببه للركاب الآخرين من التأخير ، ولا بما يصوبونه اليه من نظرات الازدراء والاستنكار . ولا يزال متشبثا بموقفه حتى يأتى رجل الشرطة فيرغمه على النزول بين سخرية الركاب وشماتتهم .

وكم أرثى لموزع التذاكر فى الترام " الكسارى " وهو يقوم إلى جانب عمله المرهق بمطاردة الغلمان الذين يتعلقون بالعربات عن اليمين واليسار ، ويلاقى كثيرا من العنت فى منع الجمهور من الركوب على السلم . ومن المؤلم حقا أنى رأيت غير مرة بعض رجال الشرطة يقفون هم أيضا على السلم مخالفين بذلك أوامر الشرطة وضاربين للجمهور أسوأ الأمثال .

ومن المناظر المألوفة فى الترام أن يدعو أحد الجالسين صديقا له إلى الجلوس بجانبه على مقعد اكتمل عليه العدد المخصص له من الركاب ، متخذا بذلك يدا على صديقه ولكن على حساب غيره من الركاب ، غير عابئ بما يسببه لهم من مضايقة ، ولا بما يوجهونه اليه من نظرات الاحتجاج والاستنكار .

فى المحطات ودور الملاهى ومكاتب البريد :

كانت مخالفة النظام هنا أكثر ما تتجلى فى تخطى الأفراد لدورهم حين يتقدمون لشراء " تذاكرهم ". ويسرنى أن أذكر أن كثيرا من هذه الدور تحتم الآن على الجمهور أن يقف فى صفوف منتظمة كل حسب دوره ، وأن الجمهور قد أخذ يتقبل عن رضا هذا النظام ، ولكن ما زلنا نرى بعض الأفراد يندسون وسط الصفوف ، أو يطلبون إلى أحد أصدقائهم فى مقدمة الصف أن يبتاع لهم ما يريدون متخطين بذلك من سبقوهم إلى الحضور .

فى المصالح الحكومية :

لأى حد تسود روح النظام علاقات الحكومة بالشعب؟ وهل تقدم الحكومة للجمهور مثلا صالحا فى التمسك بالنظام والحرص عليه ؟ وهل يقوم الجمهور من جانبه عن طواعية واختيار باتباع ماوضعته الحكومة من الأنظمة، عالما أن ذلك هو الطريق الوحيد للوصول الى حقوقه المشروعة ؟

الجواب على ذلك أن الأعمال الحكومية لا يزال ينقصها كثير من النظام، وأن الموظفين والجمهور يشتركان معا فى مخالفة الأنظمة الموضوعة والانتقاص من قيمتها .

وإذا كان لكل شىء آفة ، فإن آفة النظام فى دور الحكومة "الوساطة" "والمحسوبية" وهما ما دخلتا فى شىء الا أفسداه . عرف الجمهور ذلك ، ولمسه بيده ، فاتخذ منها سلاحا ماضيا يقتحم به دور الحكومة فينال به فى كثير من الاحيان مالا ينال بالعدل المطلق والحق المجرد .

والاغنياء وذوو الجاه اذا دخلوا دارا من هـذه الدور رحب بهم ، واحتفل بمقدمهم وقضيت حاجتهم فى غير تأخير أو إبطاء . أما الفقراء والذين لاحول لهم فينظر اليهم شذرا ويؤخرون عن دورهم ، ولا يفسح لهم فى القول ، ولا تقضى حاجتهم الا بعد لأى .

فى الحفلات :

ولا زالت حفلاتنا فى حاجة إلى كثير من التنظيم والتنسيق ، فكثيرا ما يتأخر المدعوون عن الحضور فى الميعاد المحدد ، أو يستصحبون معهم من الاصدقاء والأقارب من لم توجه اليهم دعوة ، مما يسبب للضيف كثيرا من الحرج . ولا زالت الموائد تحفل من أنواع الطعام وألوانه بما يتخم المعـدة ويدل على نقص فى الذوق واسراف لا مبرر له . ولا زال الحديث فى الحفلات أو على المـائدة إما غثا تافها ، أو عن أمور معقدة لاتفهمها كثرة الحاضرين ، أو مسائل شخصية لا تعنيهم فى كثير أو قليل .

البر والاحسان :

والمصريون على كرمهم وميلهم للإحسان والبر ، لا يحسنون توزيع ما تجود به أنفسهم من صدقات ، بل يهبونها جزافا فى كثير من الأحيان . وليس أدل على أن الاحسان فى مصر فى حاجة الى التنظيم من جيوش المتسولين المحترفين الذين تزخر بهم المدن والقرى ، والذين استناموا الى ما ينالون من الصدقات فأصبحوا عالة على المجتمع المصرى وسبة له ، وذلك فى الوقت الذى لاتجد فيه الجمعيات الخيرية المنظمة ، وجماعات الاحسان ، بعض مايكفى للقيام بأعمالها الخيرية التى ترمى بها الى مساعدة المحتاجين حقا بطرق منظمة تتمشى مع الإصلاح الاجتماعى المنشود .

هذه بعض مظاهر الفوضى فى حياتنا العامة . وقد آن لنا أن نحرر أنفسنا منها ، ونمحو عنا وصمتها ، وأن نظهر بمظهر الأمة الجادة فى نهضتها ، المؤمنة بمالها من ماض زاهر ، ومستقبل مجيد ما

على حسنى ابراهيم